

المحاضرة الخامسة/الفصل الثاني

المؤرخ وبعض مفاهيمه الهستريوغرافية

يسهل عمل المؤرخ في دراسة التاريخ وممارسة العمل التاريخي، اذا ما تمكن من فهم واستيعاب المصطلحات التي يداوم على استعمالها، وتعرف على خصائصها، التي ترد لديه عادة بشكل غير محدد ومتخصص، فبين وقت شروعه في دراسة التاريخ وتخصصه، يتعرف المبتدئ على مصطلحات يستعملها المؤرخون للتعبير عن افكارهم وآرائهم دون ان يحظى منهم او من جهات اخرى مماثلة بأي تعريف شامل ومنطقي لها، باستثناء ما هو شائع عنها، والذي يتعرف عليه إما مصادفة، أو عن طريق ما يقرأ من مصادر بين الحين والآخر، وفيما يلي وصف موجز لهذه المفاهيم المنهجية والهستريوغرافية بالتتابع.

أولاً: بعض التعابير الخاصة بطرائق البحث

. الميثولوجيا: (Methodology)

وهي منهج المؤرخ في عملية البحث والكتابة من حيث طرق وأصول وقواعد العمل التاريخي، الذي بموجبه ينتسب التاريخ الى أصول البحث العلمي الحديث، وهو تعبير غربي ادخله الى العربية استاذ المنهجية حينئذ أسد رستم عندما أسمى كتابه ذات الصلة في أصول التحري عن التاريخ ودراسته بمصطلح التاريخ، الذي يصف فحواه على انه: بحث في نقد الاصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاها وعرضها.

ان الميثودولوجيا شيء مكتسب وليس غريزي من الفطرة يحصل عليها المؤرخ المستجد بالتدريب العلمي على المهنة ، لكنها لا ترسخ ، ولا تستقر قواعدها مالم تتوفر في المرء - المبتدئ الذهنية التاريخية اللازمة لذلك ولا يشك احد في ضرورة هذه الذهنية للمؤرخ فهي التي تضي على ما يكتبه في عمله التاريخي صفة البحث

الجيد - المتزن ، وهي قبل ذلك تساعد على تقييم المعلومات التاريخية ، وتحويلها الى قرائن وادلة كافية للمباشرة في عمل ما استقر عليه فإذا ما سار المؤرخ بدون ميثودولوجيا تعينه في البحث والكتابة ، فأن ما سيتوصل اليه في نهاية الامر يبقى عديم الجدوى والفائدة لا محالة ، وسوف يقترن عمله بالفوضى والتناقض ، وكل الاشكال المختلفة من المخالطات الكتابية، فهو في التقدير الاول لا يرتقي بأي وسيلة الى المعنى المهني للكلمة، من هنا كان لابد للمؤرخ الذي يختار الاحتراف في هذه المهنة من ان يحرص اشد الحرص على تعلم الاصول والقواعد الخاصة بميثودولوجيا التاريخ، وبسبر اغوارها حتى يمكن له ان يكسب احترام المؤرخين - بشخصيته، ونتاجه التاريخي بموافقه الفكرية، والتي لا ننسى انها تعلق وتنخفض تبعاً لنوع العقلية - التاريخية التي استقر عليها، والمنهج والطريقة التي يعمل بها دوماً.

الوصف والعرض والتحليل:

الوصف (*Description*)، في العمل التاريخي هي عملية نقل الشيء الموصوف من حادثة أو قصة وغيرها الى القارئ بشكل يقوم على المنطق والواقع التاريخي ويحمل معنى خاصاً به، أما منهجياً فالوصف عادة يقف جواباً للسؤال ماذا حدث في ضمن الموضوع قيد البحث والكتابة ، فوصف حادثة المغول الكبرى تعنى عرض ما يتعلق بالموجة المغولية زمن جنكيز-خان من حيث ماهيتها وطبيعتها وما يتعلق بخصوصيتها بالنسبة للاحتلال المغولي لما وراء النهر وتدمير الدولة الخوارزمية بشخص سلطانها خوارزمشاه محمد بن تكش بشكل منطقي وتاريخي يقبله العقل ، وهكذا ومثل هذا الوصف يتم نقل الموصوف وعناصره بشكل ملاحظات مركزة غير مناقضة للتسلسل الكرونولوجي للحادثة واطرافها، وإذا ما تقدم عمل البحث فستظهر للباحث ان أجلاً او عاجلاً، اضافات عن الموضوع لم يأخذ بها الباحث في الوصف الاولي لها تصبح لا محالة من نتائج البحث واكتشافات الباحث الهامة، وهو ما يمثل مرحلة الوصف النهائي، التي تستدعي من الباحث معارضة عناصرها بعدد من الاسئلة المنهجية المتتابعة، الوصف التاريخي إذن يقوم على العرض الدقيق للمادة الموصوفة، والتسلسل الكرونولوجي للوقائع وحصول المعارضة بالاسئلة

المنهجية لتدقيق المادة الموصوفة وموضوعها، بمنهجية ثابتة والمؤرخ في الشرق يتلكأ عادة في الوصف وفي تحقيق نجاح ما فيه ويظل متعثرًا دون توفر تدريب عال في ذلك خلال مراحل تخصصه، وعند فقدان العقلية اللازمة لمثل هذا النجاح، كما إننا لا ننسى ان الوصف الجيد يساهم في انجاح عملية التحليل (المقبلة) لأن الوصف كما سنرى يشكل أحد عناصر التحليل الاساسية والضرورية في مهمة البحث.

ويقف **العرض التاريخي (Presentation)** كأحد اوجه العمل الكتابي الهامة، وتدور في عنصرها الاخير حول النتائج التي يتوصل اليها المؤرخ في عملية البحث المضنية، وفي عنصرها الاول حول مجموع الامثلة والحالات التي يبيت فيها لتطوير موضوعه ، فضلاً عن كل ما يصاحب ذلك من جوانب الوصف والتحليل والنقد المرافقة، فهي بشكلها النهائي تمثل الصيغة الكتابية للمسودة على ماتستقر عليه عند انجاز متن البحث، وما من وسيلة أفضل للمؤرخ في تحقيق العرض الجيد لمادة الكتابة، وفي توفير المؤلف الفكري اللازمة بين مفرداتها من وسيلة الاسئلة التي تملكها، فأى نجاح اولي فيها يوفر له التآلف الفكري والشخصي الذي يحتاجه بين القراء والنقاد سوية ، بينما يكون العكس صحيحاً ، عندما يخرج عليهم بعرض تاريخي مبتور لا يركن اليه حيث يفقد منزلته وهيبته ، طبقاً للأداء السيء الذي خرج به ، والمادة العقيمة التي جاءت بها ذهنيته، ومثل هذا ينعكس أيضاً على استعماله للدراسات الحديثة وعلى تقويم الافكار الواردة فيها.

وبالنسبة الى **التحليل (Analysis)**، فهي اهم عملية فكرية يلجأ اليها المؤرخ في مسألة البحث المضنية سواء كان ذلك يتعلق بمرحلة فحص المادة التاريخية من مصادرها أو في اثناء الانغماس في تطوير مسودته ، وأصل هذه العملية تجزئة الحادثة أو ما يشابهها الى العناصر التي تتكون منها ، لأجل اكتشاف الخصائص التي تتميز بها مجتمعه ، عن طريق تقرير ما هو معروف عنها من هذه الخصائص المدونة ، مقابل تباين الاساس والمخفي منها لاحقاً بالحسابات والاعتبارات المنهجية والتاريخية الثابتة ، وبالوسائل التي تقرها الطرق المنهجية المتوفرة للمؤرخ، فهي إذن

مسألة جوهرية في العمل التاريخي لأنها تسعى الى معرفة الصحيح من الخطأ، حتى توصل الباحث لاحقاً الى النتائج نظرية غير ممكنة في الحالات الاعتيادية من حيث تحديد قيمتها وأهميتها، أما غيابها فيؤدي الى اختلاط الحابل بالنابل، وانعدام الفكر التاريخي السليم، أي أن التحليل من بدايته الى نهايته كتمارسة، هي عملية حسابات فكرية تعدد من الاحتمالات التي تسمح بها دراسة المشكلة من خلال مقارناته الشخصية للروايات الواصلة الينا، والاكثر اهمية، إن شروطها الأساسية تقضي بتوفر الأدلة والبراهين اللازمة لدعم النتائج والانطباعات الاولية التي يتوصل اليها فكر الانسان عن حالات تاريخية قائمة من الماضي - من هذا المنطق فقط تأتي العلاقة الوثيقة بين التحليل والنقد، مما يسمح عندئذ للمؤرخ بضبط النص وتصويبه ثم توظيفه.

النقد والنقد التاريخي:

لا توجد عملية فكرية في منهجية البحث أكثر حساسية ودقة من النقد والممارسة النقدية في العمل الكتابي، فهي عملية فكرية موسعة تستهدف تقويم المادة التاريخية المكونة للبحوث لتقرير مصداقيتها وقيمتها، فما من أحد من المنهجيين يُقر بسهولة هذه المسألة ، او ينكر ما تثيره من مشاكل أثناء ممارستها ، وهي لا تقع في يد كل من اكتسب شهادة التاريخ أو مارس العمل الكتابي فيه ، لما تتضمنها من خطوات فكرية متداخلة لا يرتقى الى عملها الا المؤرخون المحترفون كضبط النصوص بمحتوياتها ، الى تقرير الاصاله الخاصة بها ، ومن ثم قبولها كحقائق مسلم بها تعتمد المصداقية المنشودة ، فضبط النص لا يتحقق الا عن طريق تحليل مادة الاخبار، وتقصي عناصرها ، وتقرير الاصاله غير ممكن دون توفر القرائن الدالة بها من الشاهد الداخلي والخارجي ، الذي يدور أساساً حول فحص الإسناد ان كان ذلك متوفراً، والمصداقية لا يرتقى اليها الا اذا تمت عن طريق المقارنة المستمرة للروايات بعد اقرار حالة الأصاله ، أو بعد تحديد قيمتها وكل هذا لا يتم دون توفر الذهنية اللازمة للمؤرخ، المبنية على منهجية البحث في الكتابة من منطلق التدريب على اصولها والنقد الذاتي لشخصه كباحث، من هذه الناحية تأتي أهمية الممارسة النقدية

منهجياً، فهي التي تقرر فيما اذا كانت المادة قيد البحث والمراجعة هي مجرد أساطير وقصص بالية من نسيج الخيال، أو مجرد وثائق مزورة لا غير أو أخباراً مختلفة، والممارسة النقدية لا تتحقق دون الأخذ بنظر الاعتبار تلك الخطوات المتداخلة في عملية البحث والمنهجية، حيث تتحدد منها قيمة المادة التاريخية للمؤرخ، لأن عمل هذا المحترف هو اساساً ليس نقل الأخبار والروايات كما يقرئها في مصادر عمله، وانما تدقيق صحة الأخبار والعمل على تفسير مضمونها.

الموضوعية (Objectivity):

الموضوعية هي اقتران ذهنية الباحث في حياد فكري أثناء ممارسته العمل الكتابي فهي صفة ومعيار، وليست طريقة كما ان الموضوعية هي مسألة تركيبية - نسبية وليست حالة متكاملة لذهن المؤرخ لأن الأخير، مهما حاول التعمص والظهور بالموضوعية المطلوبة، لا بد أن يتسرب اليه من مصادره عناصر تنفي عنه جوانب من هذه الموضوعية، وما يتسم بالموضوعية يكون شيئاً منطقياً يقبله العقل وليس بالعكس، فقد يكون الفكر منطقياً دون توفر صفة الموضوعية فيه، لكن الموضوعية لا تعني بعد اداء مهمة التحليل ان المؤرخ نفسه لا يستطيع تبني رأي ما حول موضوعه، او ان يبدي فيه وجهة نظر خاصة وشخصية، لأن هناك فرقاً أساسياً بين ان يتبنى الفرد فرضية خاصة يميل اليها، ثم يبحث في مصادره عن الادلة والقرائن التي تؤيد تلك الفرضية لتعمص شخصية المؤرخ المحايد ، فمثل هذه الحالة لا تخرج عن كونها موضوعية مفتعلة ، وبين أن يتوصل بالقرائن الى فرضية مقبولة بعد فحص وتدقيق مادته الأولية بما تسمح به حقائقه ، والتي لا تخرج حينذاك عن نطاق الموضوعية المنشودة.